ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ٩ —

خرجت من عند ليلى وقد انتصف الليل ، فما كدت أبلغ الجادّة حتى لمحت إنسانة تعدو خلفى فى الدربونة [1] فالتفت فاذا هى ظمياء

— دكتور ، متى أرجع إليك ؟

— حين تشائين ياظمياء ، ولكن ماالموجب لهذا الاستعجال ؟

— هل نسيت البقية من قصة ليلى مع عبد الحسيب ؟

— ما نسيت . ارجعى إلىّ مساء الغد يا ظمياء ، ومعك ماعون من الكُبّة الموصلية [2]

* * *

لا موجب للنفاق فى هذه المذكرات . إن ظمياء فيما يظهر تتشهى أن تتكلم فى عبد الحسيب ؛ وأنا فيما يبدو أتشهى الكلام عن درية ؛ وأكرر ما كتبته من قبل : (إنى لا أعرف كيف يلذعنى هذا الاسم) وربما كان هذا من جنون الشعراء ، فأنا شاعر مقل ، ولكن الإقلال لايمنع من التشرف بجنون الشعراء . ولعل الإقلال أدل على الجنون ؛ وإلا فما كان الذى يمنع من أن أفجع العالم بعدة دواوين ليصبح شعرى حديث الأدباء فى سائر البلاد ؟

درية ! درية ! ما أعذب هـذا الاسم ! وما أشقانى فى (استلطاف) الأسماء !

* * *

رجعت إلى المنزل وأنا أتشوق إلى افتيات النعاس ، فقد كنت انتشيت فى حديث ليلى ، والمنتشون يتشوقون إلى المجهود ؛ كذلك سمعت . ولكنى صادفت ما أطار النوم من رأسى ، فقد وجدت جريدة الشباب بين البريد وفيها هذه الكلمات :

« فجع الأدب والعلم ونكبت الأخلاق الكريمة بوفاة الأديب الكبير المحقق والكاتب العبقرى المنقطع النظير المرحوم الأستاذ محمد صادق عنبر المنشىء الشهير واللغوى المعروف ، فقوبل الخبر بحزن شديد ، وألم عميق ، لما اشتهر عن المرحوم من واسع العلم والاطلاع وصدق الوداد ومكارم الأخلاق »

وقد هدّنى هذا الخبر المزعج ، ونشر أمام عينىّ كثيراً من الصور والأطياف ، فتذكرت أنى رأيت صادق عنبر أول مرة سنة ١٩٢٣ فى جريدة الأخبار ، فسألنى عمن أفضل من الشعراء فقلت : شوقى . فقال : أسألك عن الشعراء الثلاثة . فقلت : من هم ؟ فقال : أبو تمام والبحترى والمتنبى . فقلت : أنا أفضل الشريف الرضى على هؤلاء الثلاثة . فاستغرب وقال : هذا كلام لم يقل به أحد سواك !

وتذكرت أنى كنت أتلقى مجلة النهضة النسائية وأنا فى باريس سنة ١٩٢٧ وفيها رسائل وجدانية عنوانها : (الرسائل الضائعة) وهى رسائل نفيسة بقلم صادق عنبر ، فلما لقيته بعد حين أثنيت عليها ، فقال وهو يتوجع : ليتها كانت صحيحة ، فهى خيالية ! فقلت : ليتك تمضى فى هذا النظام البديع !

وبعد رجوعى من باريس فى سنة ١٩٣١ كان أول من سأل عنى ، شررت عليه فى قلم المطبوعات فحبسنى ساعتين ليمتع أذنىّ برسائله : (رسائل الحب بين قيس وليلى) فقلت : أهى أيضاً رسائل خيالية ؟ فتنهد وقال : لو كانت تنبىء عن وجد دفين لما كان جسمى أضخم جسم فى هذه البلاد ؟ فنصحته بتكلف المشى ليخف وزنه فيمسى وهو فتى رشيق ؟

وتذكرت أنى أردت مداعبته في جريدة البلاغ سنة ١٩٣٥ فذهب إلى صديق الأستاذ كامل كيلانى وقال له : قل للدكتور زكى مبارك : إن صادق عنبر لن يقرأ البلاغ ولن يعرف ماذا يقول ؛ فليثق حضرته بأن الأرض لن تزلزل تحت قدميّ ، ولن ينقوض ماضى صادق عنبر لأن زكى مبارك يهجم عليه فى جريدة البلاغ !

وتذكرت والدمع يملأ عينى أن الأستاذ محمد على الطاهر أراد أن يحتفل بسفرى إلى العراق فدعانى إلى الغداء عند العجاتى مع جماعة من أهل الأدب والعلم والبيان ، كان فيهم الأستاذ صادق عنبر ، ولكنه يومئذ لم يشترك فى أطايب الحديث ، فهل كان انتهى من دنياه ؟

يرحمك الله ياصديقى ، ويرحم عهدك فى جريدة اللواء ، يوم كان أكثر كتّاب اليوم أطفالاً يلعبون !

* * *

(١) الدرب فى مصر هو الدربونة فى العراق

(٢) الكبة عند العراقيين هى الكبيبة عند السوريين ، ويقال إن الكبة الموصلية كانت السر فى براعة أبى اسحاق فى الغناء

الشجى يبعث الشجى !

هل أستطيع أن انتهز هذه الفرصة فأدون فى هذه المذكرات حادثة عجزت عن تدوينها منذ أشهر طوال ؟ هل أستطيع أن أقول بصراحة إننى كنت من أشد الناس ارتياحاً إلى اصطخاب الجدل السياسى فى مصر ؟ لقد آن لقلبي أن يفصح عن بلائه المكنون . إن الجدل السياسى فى مصر كان نعمة وارفة الظلال لأنه استطاع أن يشغل صديقى الأستاذ عباس الجمل عن أفدح نكبة أصيب بها فى دنياه ، وهى اختضار[1] الغصن المطلول الذى اسمه طاهر عباس الجمل الطالب بكلية الحقوق

آن أن أصرح بأن هذا الأديب المفقود كان يحفظ ديوانى ، وأنه تفضل فأسمعنيه قبل أن يذهب إلى دمياط بيوم واحد . آن أن أصرح بأن هذا الشاب كان يرانى أكرم أصدقاء أبيه ، وكان يرى من البر أن يحفظ أشعارى ويقتنى مؤلفاتى . آن أن أبكى هذا الشاب النبيل الذي كان أطهر ضحية ظفرت بها الأمواج

لقد حضرت الذكرى الأخيرة من ذكريات سعد زغلول وكان مجلسى فى السرادق يواجه مجلس النقراشى باشا فلم أسلم عليه ؛ وظن بعض الحاضرين أننى خشيت أن يكون فى السلام عليه ما ينقض مودتى للنحاس باشا . فهل أستطيع أن أنص فى هذه المذكرات على أننى لم أخف يومئذ إلا أن يقع بصرى على الأستاذ عباس الجمل فأذكره بتلك المصيبة التى تذيب لفائف القلوب ؟

كان طاهر الجمل لا يلقانى فى الطريق إلا دعانى إلى رؤية منزلهم الجديد فى مصر الجديدة ، وكان يغريني فيقول : إن لونه كالشليك !

ولكنى لم أطعه ولم أر المنزل . وما أظننى سأراه فى بقية حياتى ، لأن جزعى على طاهر خليق بأن يقتلنى إذا رأيت ما كان يهواه فى دنياه .

أخى الأستاذ صادق عنبر

أرأيت كيف كانت مصيبتى فيك باباً من البلاء !

إن طاهراً فى نضارته كان مثلك فى ذكائك ؛ وعبقرية النضارة لا تقل روعة عن عبقرية الذكاء . وأنت قد تجد من يحبر الرسائل الطوال فى الثناء عليك ، ويقيم لك حفلات التأبين ؛ أما طاهر الجمل فيستصغر ناس قدره ، لأنه كان طالباً بالسنة الثالثة بكلية الحقوق ، فلم يبق إلا أن أقف وحدى لبكاء تلك الزهرة النضيرة التى اقتطفها الموت فى شاطىء دمياط

وما يؤذينى وأنا أكتب هذه الكلمات إلا أن تحمل نسائم الهواء إلى الأستاذ عباس الجمل أننى فكرت فى طاهر ، فيتذكر أننى ما عزيته فيه ، فيتجدد عتبه على صديقه القديم ، أو يؤذيه أن يتذكر ابنه بعد تناس ؟ ولكن كيف يتناساه بعد أن ضم بوجهه وروحه سنين وسنين ، وأنا ما نسيته مع أن بصري لم يقع على وجهه الجميل غير مرات ؟

يا طاهر !

أذكرنى عند ربك ، وقل إن فى سكان الأرض ناساً يحفظون الجميل !

* * *

وقضيت تلك الليلة وأنا مؤرق الجفون ؛ وزاد فى الغم والحزن أن الوهم خيل إلىّ أن صادق عنبر قد يكون مات بسبب ليلى ، مع أن ليلاه خيالية ، فكيف يكون مصيرى وليلاى امرأة رخيمة الصوت ساحرة العينين تقيم بشارع العباس بن الأحنف فى بغداد ؟ !

وفكرت ثم فكرت ، والشجون من جملة الأرزاق !

ولكن وقع حادث طريف خفف ذلك البلاء :

فقد صمم سعادة وكيل وزارة المعارف العراقية أن يزورنى فى منزلى ليؤدى واجب التحية لرجل هجر وطنه وأهله ليتشرف بخدمة الأدب العربى فى العراق ؛ وكانت زيارته فى الليل ، فراعه أن يرى الظلام يغمر السلالم والدهاليز ، فاستشاط غضباً وقال : كيف يجوز لصاحب هذا المنزل وهو عضو بمجلس النواب أن يهمل الإضاءة الواجبة ، وهو يعلم أن من سكان منزله صاحب النثر الفنى ؟ سأعرف كيف أحاسب ذلك النائب وكيف أقهره على تعميم النور في دهاليز ذلك البيت ؟

فقلت وأنا أتخوف العواقب : أنا مطمئن إلى هذا الظلام يا سعادة الأستاذ !

فقال: وأنا أخشى أن تشكونا إلى مجلة الرسالة أو جريدة البلاغ

(١) الاختضار بالخاء المعجمة هو الموت فى عهد الحداثة والشباب

ولم يمض يومان حتى نفذ النائب المحترم ماأراد سعادة الوكيل ؛ ولكن ظمياء استرابت بهذه الأنوار ورفضت دخول البيت !

— ماذا تخافين يا ظمياء ؟

— أخاف الأقاويل والأراجيف

— من المفهوم أنك وصيفة ليلى ، وأنى طبيب ليلى

— هذا كلام لا يصدقه غير المطلعين على ما جرى فى هذا الشأن من المخابرات بين الحكومة العراقية والحكومة المصرية

— والجمهور ؟

— أترى الجمهور يصدق حقيقة أنك جئت لمداواة ليلى المريضة فى العراق ؟

— خبر أسود !

— خبر أسود ، خبر أبيض ، خبر بنفسجى ، خبر عنابى ، خبر برتقالى ، خبر بنى ، خبر خمرى ، أنا لا أدخل هذا البيت فى هذه الأنوار وكل سكانه يعرفون أنك رجل وحيد

— نعم ، أنا رجل وحيد

— وحيد ، أعنى تعيش وحدك

— مفهوم ، يا ألأم النساء فى بغداد

— إيش لون ؟

— لاشىء ، أقول إنه لا موجب لهذا التخوف ، فأنا طبيب ليلى وأنت وصيفة ليلى

— اسمع يا دكتور ، أنا أثق بأمانتك ، وليلى لم تنهنى عن التودد إليك ، ولكنى لا أقبل أن أكون مضغة الألسنة في هذا الخان

— ومن الذى سيعرف مثلا أنك ظمياء ؟

— يجب أن تفهم أنك فى بغداد !

— باسم الله الحفيظ !

— اسمع يادكتور ! يظهر أنك رجل طيب أكثر مما يجب . إن التعرض لأقوال الناس كالتعرض لأقوال الجرائد ؛ وربما كان كلام الجرائد أسلم عاقبة من كلام الناس ، لأنك تستطيع أن تكذب ماتنشر الجرائد من الباطل فتدفع ماتؤذيك به من بهتان ؛ أما كلام الناس فلا سبيل إلى دفعه لأنه ينتقل من أذن إلى أذن ومن لسان إلى لسان ، ثم لا تمضى غير أيام حتى يأكل لحمك المقترون ، ويأثم بسببك الأبرياء

— وماذا أصنع يا ظمياء ؟

— ارحل عن هذا البيت

— وكيف بعد أن تكلف صاحبه ماتكلف فى تبديد الظلمات؟

— اختلق سبباً من الأسباب

— أختلق ؟ !

— الاختلاق مما يجوز فى بعض الأحيان

وعندئذ تذكرت أن الأستاذ بهجة الأثرى كان اقترح على صاحب البيت أن ينظم الحمّام ولم يفعل ؛ فطمأنتُ ظمياء . ومضيت فقضيت معها السهرة فى بيت أمها ، وهو منزل صغير فى درب ضيق لم أسأل عن اسمه ، وهو درب يشبه ما يسمونه فى مصر : شق الثعبان

وفى صباح اليوم التالى قابلت حضرة النائب المحترم وذكرته باقتراح حضرة الأستاذ بهجة الأثرى ، فأراد أن يتحلل من الوعد فتكلفت الغضب وقلت فى سخرية مصطنعة : كذلك تكون وعود النواب ! !

ولم تمض غير ساعات حتى انتقلت إلى منزل آخر فى شارع السموءل

ولكن كيف انتقلت بهذه السرعة فى يوم واحد ؟

ذلك أمر كان يعجز عنه السنهورى والزيات وعزام

والواقع أني رجل خطر جداً ، فقد أمسيت أعرف بغداد كما أعرف باريس ؛ ومعرفتي بهاتين المدينتين تساوى جهلى بمدينة القاهرة التى لا أعرف منها غير ثلاثة أحياء . أما الاسكندرية فلا أعرف منها غير الشاطئ الذى تعطره أنفاس اللاح فى الصيف

* * *

ولكن لماذا اخترت شارع السموءل ؟

لأنه شارع البنك وجميع سكانه من أهل المال ، وأهل المال فى الأغلب لا يعتدون على الأعراض ، وإنما يعتدون على الجيوب . فالشرطة في مثل هذا الشارع لا تفكر في الفجرة وإنما تفكر فى اللصوص ، وكذلك تعودني ظمياء بلا تهيبّ ، لأن المآثم فى

هذه الجادّة قليلة الخطور بالبال ، وذلك كل ما أتمناه للسلامة من أهل الفضول

وقد عزّ عليّ أن يتطاول بنو إسرائيل على اسم السموءل فيسموا به شارع البنك ؛ وكان السموءل على يهوديته عربياً سخي اليدين ، فما كان ضرهم لو نطقوا اسمه على طريقتهم فقالوا (صمويل). ثم تذكرت أن السموءل كان أقدم من عبّر عن ضمائر البنوك حين قال :

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

فالبنك هو الذي ينكر ما تقول ، ولا تستطيع أن تنكر ما يقول ، فهو الفيصل في التصحيح والتزييف

ولعل انتقالي إلى شارع السموءل يدخل على طباعي بعض التعديل . ولعلني أكتسب شيئاً من أخلاق بني إسرائيل ، فان الحب يبدد ما أجمع من المال . أليس من السفه أن أراني مسئولاً عن طوائف من البيوت تُسدَل ستائرها على طوائف من الوجوه الصِّباح ؟ وهل رأى الناس حالاً أغرب من حالي وأنا أنفق على بيت في الشمس منذ سبع سنين لأن فيه فتاة جميلة كانت ترافقني في السوربون ؟

أمرى إلى الهوى !

* * *

تركت أول منزل سكنته في بغداد . ويا حسرة القلب على فراق ذلك المنزل الجميل ! فقد كان صورة صحيحة للمنزل الذي كنت أسكن فيه حين كنت طالباً بالازهر الشريف . كان صورة لربع يعقوب بالغورية ، على أيامها السلام ! وكانت جاراتي في ذلك الربع من الغيد الحسان ، وكان فيهن اسرائيلية تأتمنني على كل شيء وتقول : الشيخ زكي مسلم ولكنه ابن حلال

وكنت حقاً ابن حلال . كنت مستقيماً أؤدي الفرائض وأقرأ الأوراد ، وما تغير حالي إلا منذ استطعت أن أقول : بونجور مدموازيل ! بونسوار مدام !

لم أفارق منزلي في شارع الرشيد بدون حسرة لاذعة ، فقد أقمت فيه ثلاثة أشهر أنشأت فيها تسعمائة صفحة ، واستقبلت فيه ظمياء تسع مرات ، وهو يذكرني بمأواي القديم في ربع يعقوب الذي ألفت فيه كتاب الأخلاق عند الغزالي ، واستقبلت فيه الشيخ الزنكلوني والشيخ عبد المطلب ؛ ويذكرني بأول منزل سكنته في مصر الجديدة وهو الذي ألفت فيه كتاب التصوف الإسلامي ، واستقبلت فيه الدكتور طه حسين والمسيو لالاند والمسيو ماسينيون ؛ ويذكرني بغرفتي بشارع أراس في باريس ، وهي الغرفة التي ألفت فيها كتاب النثر الفني ، وسمعت فيها أنغام اللغة الفرنسية كما ينطقها بناتها ، وكما يلحن بها الانجليزيات والأسبانيات والنمسويات والألمانيات ، ولا سيما الشقراء التي ما كانت تتكلم بغير الغناء :

هل الله عافٍ عن ذنوب تسلّفتْ أم الله إن لم يَعْفُ عنها يعيدها ؟

أمرى إلى الهوى ! !

* * *

لقد انزعج صاحب المنزل حين رأى الخالين من الأكراد ينقلون أثقالي ، وبالغ في التلطف ليردني إلى المنزل . ولكن هيهات ، فأنا طبيب أفسده الأدب والطبيب الفاسد لا يطاق

أنا أعرف أني خاصمت نائباً ، ولكن يعزيني أن نواب العراق لا يلتفتون إلى المسائل الشخصية ، فلن ينالني شر من هذا النائب على الاطلاق . وسأرجو الأستاذ معروف الرصافي أن يصلح مابيني وبينه إن رأيت ما يوجب ذلك ... وهل من الكثير أن أخرج على أصول الأدب والذوق في سبيل ظمياء ؟ إن هذه الوصيفة تعرف جميع أسرار ليلى ، وهي أيضاً ستحدثني عن درية . ويالوعة القلب من طيف درية ! فهل يتلطف الحظ فيمتعني بهوى امرأة تحمل هذا الاسم الجميل ؟ !

* * *

إن أحزاني لا تحملها الجبال ، ولكن الله بعباده رؤوف رحيم ؛ فهو يسوق إليّ موجبات الابتسام ، أنا الرجل الحزين الذي لم يعرف قلبه الفرح منذ سنين ، وكيف أفرح وقد طلبني أبي يوم موته أكثر من خمسين مرة فلم أكد أصل إليه حتى بكته النائحات ؟

انتظرت ظمياء في المنزل الجديد وأنا محزون ، وأشهد أني مُكره على تأدية هذه الخدمة الوجدانية ، فما أعرف كيف يصير حالي مع ليلى ، ولعلها تُعاتبني ويمرض الطبيب !

ودخلت ظمياء وهي تُرغي وتُزبد

— هل عرفت ما صنعت المرأة جميلة ؟

— ماذا صنعت ؟

— لقد مزقت قصائك بعد أن غسلتها وكوتها

— عجيب ! ولـماذا ؟

— لأنها قرأت فى مجلة الرسالة أن اسمها جميلة ، واسمها الحقيقى هو ...

وعندئذ ضحكت ضحكة قوية كادت تمحو سطور الأحزان من القلب العميد

إن تلك المرأة لم تعرف إحسانى إليها بتلك التسمية ، فقد خلعت عليها اسماً أحبه أصدق الحب ، ورحمتها من الاسم الذى كانت تحمله ، لأنه يقربها من شيخ أبغضه أشد البغض ، ويكفى أن يكون اسمها واسمه مبدوءين بحرف الحاء

تلك امرأة حمقاء ! ولـكنى لن أنسى معروفها عندى ، فقد كانت أول امرأة خدمتنى فى بغداد . ولو رآها الجاحظ لصاغ لها عقود الثناء

— ظمياء

— نعم يامولاى

— لا أريد أن أسمع اسم هذه المرأة مرة ثانية ، ولا أحب أن أراها بعد أن مزقت قصائى

— وأنا أكره لسيدى الطبيب أن يتصل بهذه المرأة فقد بدأت تغتابه منذ يومين

— تغتابنى ؟ وما عساها أن تقول ؟

— تقول إنك تحب ليلى

— أنا أحب ليلى ؟ وهل جننت حتى أحب امرأة عليلة لا تملك من شواهد الحياة غير صوت يَنوم وطرف يشيع فيه التكسر والنعاس ؟

— إيش لون ؟

— ما أدرى يا ظمياء

— الأفضل أن نعود إلى قصة عبد الحسيب

— أو قصة درية

— قصة عبد الحسيب

— قصة درية ، قصة درية

— وهل تكره قصة عبد الحسيب ؟

١٤ - ١٠

— قصى على حديث الأخوين : درية وعبد الحسيب

— وأخذت ليلى تقلب الجرائد بحضور السيدة نجلاء فرأت فى السياسة الأسبوعية مقالة فى رثاء أستاذ مستشرق اسمه بول كازانوفا كتبها أستاذ مستعرب اسمه طه حسين . وتدخل الشيخ دعاس ليشرح المراد من الاستغراب والاستشراق

« للحديث بقايا »

زكى مبارك

النحو والنحاة

بين الأزهر والجامعة

بقلم

محمد أحمد عرفة

كتاب درس أسباب صعوبة النحو العربي على المتعلمين فعرف أن معظمها يرجع إلى تغير حقيقة النحو فى العصور المتأخرة ، فعمل على الرجوع به إلى ما كان عليه فى عصر الأئمة السابقين ، واكتشف التفكير الذى كان يفكر به العربي فى باديته عند ما يتكلم فلا يلحن ، فوضحه ، وأقام الأدلة على أنه التفكير الفطرى الطبيعى ، وأنه لبساطته لا يحتاج إلا إلى زمن وجيز ليثبت ويكون سليقة ، فإذا درس النحو فى المدارس على حسب هـذه القواعد وإشارتها قربت اللغة العربية من طبيعة المتعلمين ، وأصبحت مع المراعاة والمران سليقة فيهم كما كانت سليقة فى العرب . وهو فوق ذلك ناقش كتاب — إحياء النحو — فيما نسبه إلى النحاة مناقشة علمية هادئة وأبان أن النحو العربي برىء مما نسبه إليه من العيوب

وهو يقع فى ٢٤٠ صفحة وثمنه خمسة عشر قرشاً ما عدا أجرة البريد . ويطلب من المكتبة التجارية ومكتبة مصطفى البابي الحلبي ومكتبة السيد عيسى البابي الحلبي والمكاتب الشهيرة